نهضة المعارف في مصر

علي مبارك باشا – ٢

نبينا على أن نوجز تاريخ المصلح العظيم على مبارك باشا فنتم البحث عنه في هذا المقال ولكن وجدنا أنفسنا أمام بحر متلاطم من العجائب والطرائف في حياة هذا المصري الصميم . رقة في الأخلاق وعطف غريب على الأهل والأقارب ونزوع إلى المثل الأعلى في معاملة الناس وانصراف إلى البناء العلمي في تشييد المدارس وإقامة الجسور والقناطر وتمدين المدن والمغتوى في تهذيب النشء وتثقيف عقولهم وإقامة مجد مصر الحديث .

لما نظرت في هذا التاريخ الحافل بالعظائم عز على أن أمر به مراً خفيفاً وأردت أن أنزه نفسي في رياضه وأن أبسط الحديث عنه ووددت لو اهتم القائمون بالأمر فينا إلى العناية بإقامة تمثال لعلى باشا مبارك في مدخل وزارة . لا أدري أي وزارة أعني . فله الفضل على وزارة الأشغال في إنشاء القناطر والترع من كبيرة وصغيرة وفي إزالة الأكوام من قلب القاهرة وتنظيم شارع محمد على والأزبكية وغيرها .

وله الفضل على مصلحة السكة الحديدية فقد نظمها وقضى في إصلاحها بياض نهاره وسواد ليله ، وله الفضل على وزارة الأوقاف فقد أصلح المساجد المهجورة وأزال عبث نظار الوقف ورتب دفاترها وحدد المسئولية في مختلف أعمالها ، وله الفضل على وزارة المعارف فقد أحياها ورباها على يده طفلة وفتاة حتى أصبحت أما رءوما ترف بأجنحتها الأبية على شعب مصر وتحنو عليه حتى تخرجه من الظلمات إلى النور . ولكني أوثر وزارة المعارف بهذه المنقبة وإليها أسوق الحديث فقد كانت إدارة المعارف أحب الإدارات إليه ما تفلت من يده لسبب ما حتى يعود إليها عاملا مجداً ومشيداً منظماً ، فلا يمر وقت دون أن ينشئ فيها خلقاً جديداً ، وعملا عظيما فهي أولى به من سائر الوزارات وقد طوال حياته يرقب ثمار غرسه في المعارف سواء أكان فيها أم خارجها حتى جاور ربه . فهل لأعيننا أن ترى نصباً في مدخل وزارة المعارف يذكرنا برب هذا البيت وواضع أساسه . أرجو إن شاء الله تعالى .

ثم نحصي بعده لأهم ما ابتدأت في عدد سابق : في سنة ١٨٤٤ م رأى عزيز مصر محمد على أن يرسل بعثة حربية إلى فرنسا تسمى بعثة الأنجال ، لأن فيها عدداً من كرائم هذه

الأسرة النبيلة منهم الأمير الأعظم اسماعيل بن ابراهيم ومعهم المتقدمون من تلاميذ المدارس المصرية ، وعرض الأمر على علي مبارك فحار في أمره وتنازعته الهواجس أيرفض أم يقبل ؟ إنه إن رفض ضمن لنفسه منصبا لا بأس به، هو منصب التدريس في مدرسة الهندسة (المهندسخانة) ، فقد مناه ناظرها الأماني وأحال عليه مدرسو المدرسة ليتبطوه عن السفر، ويعدوه بالخدمة ورانيها إن سمح لنفسه بالبقاء ، ولم لا يقبل وقد نفحه ولأبيه وأمه باب الرزق بعد أن ظل يتقاضيهم راتبه كل شهر من يوم أن دخل المدارس الى وقته هذا ؟ .

ولكن النفس القوية لا ترضى إلا بالمعالي. جاء في الخطط التوفيقية التي ألفها المترجم : (ورأيت أن سفري مع الأنجال مما يزيدني شرفا ورفعة واكتسابا للمعارف فصممت على السفر مع أني أعلم أن أهلي فقراء . ويعود عليهم النفع من الراتب وهم منتظرون لذلك لكن رأيت الكثير الآجل خيرا من هذا القليل العاجل . فحصل ما أملته والحمد لله ، فسافرنا الى تلك البلاد وجعل راتبي كل شهر مائتين وخمسين قرشا فكنت أجعلت نصفها لأهلي يصرف لهم كل شهر وكانت هذه سنتي معهم منذ دخلت المدارس)

فلله هذه النفس ما أبرها وأكرمها وأوفاها وأنبلها . بربك أيها القارىء لو عرضت تلاميذ البعثات المصرية التي توفدها الحكومة كل عام صفا واحدا وحدقت النظر في وجوههم ثم امتحنت خبيئة نفوسها ، أترى واحدا منهم يبر أباه وأمه مثل هذا البر؟ أم تراه لا تقنع نفسه بما تبذله الحكومة وهو كثير ؟ ويأبى إلا أن يجشم أهله المشاق في سبيل تعلمه ، ثم يعود إليهم بعد ذلك بثالثة الأثافي بأنسانة فتانة ، استودعها مشاعره قبل أن يطأ سلم الباخرة في العودة الى مصر ، هو بعد ذلك غريب الأطوار ، أعجم اللسان لو قصصت قصة أخلاقه على القوم الذين تربى بينهم لنفروا منها ، ويرثوا إلى الله أن تقسب إليهم . هو مع الافرنج لبق ظريف، ومع أهله وقومه فظ عتيق.

وليت وليدا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

كان شأن هذه البعثة الحربية بعثة الأنجال عجبا ، إذ ترى هذا يعرف الفرنسية ويجيدها وذاك لا يعرف منها حرفا ، وكذلك كان صاحبنا علي مبارك فلم يسبق له أن تعلم الفرنسية .

ذهبوا إلى باريس فأنشئت لهم مدرسة ، واختص بهم مدرسون وضباط وناظر من رجال الحربية الفرنسية — فصدر أمر ناظر هذه المدرسة بجعل المتقدمين من الطلبة في فرقة واحدة وكان علي مبارك ، من بينهم — وصدر أمره كذلك أن يتلقوا الدروس باللغة الفرنسية

فاحتج على مبارك ومن على شاكلته بعدم معرفتها وأنه عبث من العبث أن يكونوا فى فرقة بعضها يفهم ما يقول المدرس ، والبعض يصغى إليه دون جدوى ، فأمال غير العارف على العارف ليشرح له بعد الدرس ما قال المدرس ، ولكن الزملاء كانوا حريصين على التقدم ، ورأوا من مصلحتهم أن يبخلوا بما سمعوه فلم يجد فريق على مبارك حيلة إلا الاضراب عن تلك الدروس ، حتى يرى الناظر فى مسألتهم رأياً معقولا ، ولكن ظهر أنه كان رجلا عسكريا يرى فى تصريف الأمور رأيا واحداً ، وإن الأمر بفهم الدرس كالأمر بتلقت الجنود أو استقامتهم فحبسهم وكتب لولى النعم محمد على بعصيانهم ، فأمر أن ينبه عليهم بالامتثال ومن خالف أرجع إلى مصر ، فماذا يصنع على مبارك ؟ وكيف له أن يستنبط من الصخر ماء زلالا ، ويحمل نفسه ما لا طاقة له به ، ليتمكن من فهم الدروس حتى يتقدم الى امتحان الثلاثة الأشهر الأولى فيكون أول الفرقة

حدث عن نفسه قال : (وبذلت جهدى وأعملت فكرى فى طريقة توصله الى معرفة اللغه الفرنسية ، فسألت عن كتب الاطفال ، فأهدانى المعلم عن كتاب فاشتريته واشتغلت بحفظه ، وشمرت عن ساعد جدى فى الحفظ والمطالعة ، ولزمت السهاد وحرمت الرقاد ، فكنت لا أنام من الليل الا قليلا حتى كان ذلك ديدنا لى إلى الآن ، فحفظت الكتاب عن ظهر قلب ثم حفظت جزءا عظيما من كتاب التاريخ بمعناه أيضا ، وحفظت أسماء الأشكال الهندسية والاصطلاحات كل ذلك فى الثلاثة الشهور الأولى وكانت العادة أن الامتحان فى رأس كل ثلاثة شهور وكنت مع ذلك ألتفت إلى الدروس التى يعطيها المدرسون ، فأثمر الحفظ معى ثمرة كبيرة ، وصرت أول الرسالة كلها بالتبادل مع حماد بك وعلى باشا ابراهيم)

ظل المترجم يكد ويعمل وقل أن تفوته الاولية ، فان لم يكن مجلياً فمصلياً ، وبعد تمام سنتين اختير الثلاثة الأول المذكورون ليتموا التعلم فى مدرسة « متز » بفرنسا وأقاموا بها سنتين أخريين فأتموا معرفة الفنون الحربية وهندسة الحرب ، وكان المرحوم ابراهيم باشا يود بقاءهم فى فرنسا حتى يستوفوا فوائدها ثم يسيحوا فى الأقطار الأوربية لتطبيق العلم مع كشف حقائق البلاد وأحوالها وعاداتها ، ولكن أراد الله غير ما أراد ولحق بربه

وفى سنة ١٨٥٠ صدر أمر الوالى عباس باشا الأول بعودة البعثة ، فلم يروا مفراً من الامتثال ، وقد اكتملت مداركهم واستعدوا لقيادة الأمة ورفع لواء الاصلاح الذى كانت مصر فى حاجة إليه ، وسأدع على مبارك يحدث عن نفسه بهذه الطريقة عند عودته (وكان على دين لبعض الافرنج نحو ستمائة فرنك ، وكانت الأوامر المقررة ألا يسافر واحداً إلا بعد وفاء دينه ، وأن من يأتى منا إلى مصر مدينا يوضع فى الليمان ، فوقعت فى أمر خطير وبقيت

متحيراً ، وطلبت من رفقتي أن يقرضوني ، فقالوا ما عندنا ما نقرضك إياه ، وأنا أعلم بعسر بعضهم واقتدارهم ، فقعدت في محل إقامتي أفكر فيما أصنع ، وإذا بصاحب من الافرنج دخل علي يدعوني للأكل عنده حيث إني مسافر ، فوجدحالي غير ما يعهده فالني فأخبرته ، فقال : لا تحزن وقل يا سيد يا بدوي يامن تجيب الأسير خلصني مما أنا فيه ، فقلت له ليس الوقت وقت هزل .

فقال : هذا أمر هين لا يهمك ، ثم ذهب فغاب قليلا ورجع إلى بكيس وماه المائي ، فاذا فيه قدر الدين مرتين ، وقال لي بعد استقرارك بمصر وتيسر أمرك أرسله إلى ، ولم يأخذ مني سندا بتسلم النقود وقال : أنا أكتفي بالقول منك ، وقد كان ، وحضرنا إلى مصر وأرسلت إليه المال على يد قنصل فرنسا بعد مدة .

عاد علي مبارك إلى مصر وقد تغيرت البلاد ومن عليها . فأين محمد علي وجيوشه الظافرة ؟ وأين ابراهيم وأحلامه الخافقة ؟ . أين مصابيح مصر النيرة التي سلمها العزيز مقاليد الأمور بعد أن اغترفت من ينابيع فرنسا ؟ أين رفاعة رافع ومن عهد إليهم محمد علي في إصلاح المدارس وتنظيمها ؟ زعموا أن عباسا أرسلهم إلى السودان لينشئوا مدرسة في الخرطوم ، فمات منهم من مات وذاق مرارة العيش من قدر له البقاء .

كان عباس متقلب الأطوار ، شديد التشاؤم من نهضة محمد علي ، ميالا إلى الاقتصاد في النفقات ، متبرما بالأجانب وبخاصة الفرنسيين الذين عول عليهم محمد علي في إلقاء بذور المدنية والحضارة في مصر ، فأبطل المنشآت وأغلق المدارس إلا قليلا ، فدب اليأس في الرجاء وعادت مصر القهقري . فماذا يكون عمل علي مبارك وإخوانه ؟ إنهم عسكريون ومهندسون ، ولكن ألم الصدمة شديد ، فأخذ يبحث عن عمل لكسب العيش ، فعين مدرسا بمدرسة طره الحربية ، وقد أثرت خيبة الأمل في تلاميذها فهربوا وأخذت نفوسهم تمني الى القبور بدلا من أن تخرج من المدرسة لتحتل الأبطال في المعارك ، فتناقص تلاميذ هذه المدرسة حتى لم يبق بها إلا المتقدمون في السن ، ودخل علي مبارك ليرى تلاميذه فلم ير في الفصل غير تلميذ واحد ، فقابل بعمله صابرا محتسبا . وبعد أن اطمأن إلى هذه المهنة المتواضعة فكر في أمه وأبيه وأراد أن يزف اليهما خبر عودته وتوافر مساعدته ، ومن حظه أن انتدب في مهمة هندسية مع سليمان باشا الفرنسي قائد الجيش المصري وهي كشف بحيرة المنزلة وضواحي مصر الشمالية ، فصحبه إلى دمياط وأدى ما عليه ورسم مواقع البحيرة ، ثم ذهب إلى بلدته برنبال وكان أهله قد نزحوا إليها منذ مدة واستقروا بها ، فدخلها إلا على حين غفلة من أهلها وطرق الباب ولم يكن أبوه بالمنزل بل كان مسافرا ، فقالت أمه من

الطارق ؟ قال : ابنكم علي مبارك فدهشت أمه إذ سمعت صوتا أجش ، وفتحت الباب بقدر ما ترى العين ، فرأت جنديا طويلا ذا ملابس براقة والسيف قائم بجانبه « فلولا الغمد يمسكه لسالا » فأدركها الذهول ، أين هذا من علي الصبي الوديع ذي الملابس الرثة ؟ فلولا أنه كان غائبا عنها منذ أربع عشرة سنة وأنها تهتف باسمه منذ فارقها — وكأن الله ألقى في روعها قوله (إني لأجد ريح يوسف) — لولا ذلك ما سمحت لهذا الوارد أن يدخل بيتها ، ولظلا يتحاوران والباب بينهما أمدا طويلا ، ففتحت الباب وملأت نظرها منه ، وارتمت عليه معانقة وسقطت مغشيا عليها من فرط السرور ، وبعد مدة أفاقت وجعلت تبكي ، ثم طفح فوق جبينها السرور فجعلت تضحك ومالك الفرح عنانها فجعلت تزغرد . وأقبل أهل البيت والجيران واستيقظت البلدة وانقضى الليل حتى الصباح في التهاني والناس ما بين غادو رائح : فقضى علي مبارك يومين بين أهله وعشيرته لم يسمح الزمان بمثلها ، ثم استأذن من أمه في العودة من حيث أتى ، فأذنت وسمحت له أن يأخذ معه أخاه وأخته ليربيهما ، وعاد إلى دمياط وعرض على القائد سليمان باشا الفرنساوي نتيجة تجواله في بحيرة المنزلة ، فوقعت عنده موقع الاستحسان ، وأثنى عليه ونوه بشأنه عند أولى الحل والعقد في مصر ، ورأيت فضائل علي مبارك إلا أن تذاع ، فأرسل عباس باشا يطلبه ، وقال في ذلك : (ولما مثلنا بين يدي المرحوم عباس باشا أنا وحماديك وعلي باشا ابراهيم قال لي : أنت علي أفندي مبارك ؟ ، قلت نعم فقال : إن أحد باشا (يعني أخا الخديوي إسماعيل) قد أثنى عليك فقد جعلتكم في معيتي ، وأمرت بامتحان مهندسي الأرياف ومعلمي المدارس ، لأن الكثير منهم ليس أهلا لشيء ، وجعلتكم من أرباب الامتحان » وشرط علينا ألا نتكلم إلا بالصدق ولو على أنفسنا ، وإذا عثر على أن أحدا منا كذب في شيء ، فجزاؤه سلب نعمته ، ثم حلفنا على ذلك واحدا واحدا ، وحينئذ أنعم علينا برتبة الصاغ ، وخرجنا فرحين فاشتغلنا بما نيط بنا على الوجه الأكمل)

هذه بشائر المراتب العالية في عهد عباس ، ومن ذلك الوقت لم يكن علي مبارك موظفا مغمورا بل كان ملحوظا بعين الرعاية ، معدودا من ذوي الخطر ، فعهد إليه في مهمات هندسية في جنادل أسوان لاختيار الطريق الأوفق لسير المراكب ، فاستكشف ذلك وقام بالمهمة خير قيام ، ثم أسند إليه أمر عظيم هو وضع نظام لمرور السفن من القناطر الخيرية ، وقد كان بناؤها قد قارب التمام ، فأعجب الوالي عباس باشا بمعرفته كل الاعجاب ، ومن ذلك الحين كانت تسند إليه المهام الهندسية العظيمة .

أحس عباس باشا أن إلغاء المدارس بجرة قلم أمر لم يرتح إليه ضميره ، ورأى من الخير افتتاحها من جديد ، ففي سنة ١٨٥١ م عرض عليه المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة

ميزانية لمدارس المكية والرصدخانة تبلغ مائة ألف جنيه فاستكثر عباس هذا المبلغ وأحال الأمر على المترجم فوضع مشروعا موقتا يرضى الوالى ويكفل الاصلاح ، ذلك هو حذف الرصدخانة من المشروع لعدم وجود من يقوم عليها حق القيام ولكثرة نفقاتها واختصر ميزانية المدارس إلى خمسة آلاف جنيه على أن تكون فى مكان واحد وبإدارة ناظر واحد ، فأحال عباس باشا المشروع على لجنة فحصته ، وبعد المناقشة استحسنته وأقرته فأمر بتنفيذه ودهش أن يكفى هذا المبلغ لانشاء المدارس ، ورأى أن يعهد إلى صاحب المشروع فى أمر التنفيذ فجعله ناظرا للمدارس ، ومنحه الرتبة ، فأصبح يلقب بلقب « بك » وعد من المقربين ذوى العقل الكبير فأبدى من فنون الادارة وطرق التدريس ما دل على قوة عقله وجعله يحق أهلا لثقة ولى النعم .

ومن ذلك الوقت وضع الحجر الأساسى لبناء النهضة التعليمية التى نقطف ثمارها اليوم ، وتمام الايضاح فى العدد القادم

محمود حسن محفوظ

المدرس بالمعلمين بطنطا

عظـة

تأهب للقاء ولا تقر إلى الشىء لا يفيد ولا يضر
هى الدنيا إذا حدثت عنها خلابة فحدث لا تغر
مداها البغى والعدوان يجرى وخلفها سوءات تجر
إذا ابتسمت فلا يغريك بحر بشاشته العذوبة وهو مر

« أولاد بدر » — عمر على محمد

تحيتى الى الصحيفة

ياصفحة العلم أورق نبتها واخضر فى كنف البلاد ربيع
ياصفحة التعليم طربت للجنى واهتز غصن فى ذراك وفرع
تمايل الشعر الابى بغصنها فيهب منك فى البلاد يضوع
قد قارب النضج المرجى فارقبوا قطفا لذلك الجنى .. كيف يضيع ؟

زكى حسن حسنين — « بنى مزار »

بمدرسة طنطا